عاقبة الكذب

بقلم: يوسف بلمهدي
الجزائر

تعيش أسرة سمير الفقيرة في قرية جميلة بسيطة على حافة واد فيه قليل من الماء، تزين حافتيه شجيرات الدفلى المورقة بنوارها الوردي الجذاب.

وتتكون أسرة سمير من أخويه الصغيرين وأمه، أما أبوه فقد مات وتركهم صغارا، وقد قامت الأم الحنون بتربية أبنائها والقيام بشأن بيتها.

وكان حول بيت سمير حقل صغير جدا تستغله الأم لزراعة ما تحتاجه، وفيه عنزة تحلب منها بعض اللبن وثلاث دجاجات تبيض من حين لآخر.

كانت الأم توقظ سميرا كل يوم لكي يحلب العنزة ويأتيهم بالبيض إن وجد.. كان سمير يفعل ذلك كل يوم..

غير أن سميرا كان فيه بعض الطباع السيئة..

كان إذا حلب العنزة يشرب من اللبن نصف القدح ويعود بالنصف الآخر إلى البيت، أما البيض فكان يخفي دائما بيضة تحت العشب، ويأتي بالباقي إلى أمه لكي تبيعها وتشتري بعض الدقيق.

ظل سمير على هذه الحال، وكلما قالت له أمه (متعجبة): إني لا أعرف لماذا نجد الحليب قليلا. قال سمير: لعل العنزة مريضة.

الأم: لو كانت مريضة لظهر ذلك في قلة أكلها، ولكنها تأكل العشب والعلف كباقي نعاج القرية!

تصدق الأم ولدها سميراً لأنها لا تشك في أخلاقه !

لكن سميرا كان يكذب على أمه، لأنه كان لا يشبع من الطعام القليل الذي تقدمه الأم له ولأخويه.. وكانت أحيانا لقلة الطعام تبيت الأم المسكينة جائعة.. وتطعم أولادها فقط .

أما سمير فكان يذهب إلى الموضع الذي يخفي فيه البيضة المسروقة، يبيعها ويشتري بها حلوى ويأكلها في نهم، وأحيانا يسلقها!

هل تعرف كيف يسلق سمير بيضته المسروقة ؟..

لقد كان في القرية عين ماء حامية تتفجر من حجر قرب بيت الشيخ الحكيم - حكيم القرية - هذا الشيخ الذي يقصده سكان القرية لحل مشاكلهم .

ينحدر هذا الماء إلى بركة قريبة من دار الشيخ الحكيم.. ويتجمع هناك ويصبح كالمسبح الصغير.. يقصده مرضى العظام والمفاصل..

كان سمير يقصد هذا الماء الحار ويضع البيضة المسروقة في مجرى الماء الساخن بعض الوقت ثم يأخذها مسلوقة.. فيقشرها ويأكلها..

ولا يهمه أخواه وأمه .. ثم يرمي القشور في مجرى الماء حتى لا يعثر أحد عليها .. يفعل ذلك كل مرة..

ولكن الماء يأخذ القشور، ليستقر في الأخير في بركة الماء التي يتداوى فيها المرضى.

كان الشيخ الحكيم يخرج إلى هذه البركة من الماء الساخن، ينظفها من كل أذى ووسخ، حتى يجدها المرضى صحية .

وكان يتعجب من هذه القشور التي يجدها تقريبا كل يوم في هذا الماء.. ولا يكلف نفسه معرفة مصدر هذه القشور، لأنها لا تلوث الماء تلويثا شديدا مثل الأوساخ الأخرى، ولو وجد الشيخ الحكيم أوساخا أخرى، لم يكن ليسكت عنها.. ولكنه ينبه أهل القرية إلى ذلك، ويستجيب أهل القرية إلى نصائحه..

ذات يوم أيقظت الأم ولدها، قائلة: سمير، قم لتحلب العنزة، فإن ورائي أعمالا كثيرة، أريد التفرغ لها .

سمير: نعم يا أمي، سأذهب حالا .

خرج سمير ملبيا نداء أمه، وهو ينوي سرقة بيضة، وشرب نصف اللبن المحلوب كعادته..

ولكن أمه، تفقدت الحطب لتشعل النار لإعداد الفطور، فلم تجد، فخرجت قريبا من الدار، لجمع بعض الأعواد والهشيم، وكانت تشاهد من بعيد ما يفعل سمير، وأما سمير فهو لا يراها، لأنه يظن أن أمه في الدار، وهي لا تخرج عادة في هذا الوقت .

عندما حلب العنزة، أخذ القدح، وشرب منه حتى ارتوى، والأم مستغربة من فعله هذا .

ثم نظرت إليه مستخفية عندما ذهب لإحضار البيض، فإذا هو يجمع ثلاث بيضات، فوضع اثنتين في جيب معطفه، وأخذ الثالثة وأخفاها في مكانه المعتاد.

هنا تأكدت الأم أن نقص اللبن كان بسبب شرب ولدها .

وأن سميراً كان يكذب عليها دائما، وأنه كان يسرق من البيض فدخلت الدار، وقد ملأتها الدهشة..

الأم: يا إلهي . كيف يفعل هذا ؟

عاد سمير إلى الدار، فقالت أمه: كم بيضة وجدت يا سمير . فقال: اثنتين، قالت: واللبن ؟ قال نصف القدح يا أمي، هنا بكت الأم وقالت مغضبة: لماذا تكذب عليّ يا سمير ؟ لقد شربت اللبن، وأخفيت بيضة، وقد رأيتك؟ إنك تحب نفسك أكثر من أن تحب أخويك الصغيرين، وأكثر مني، ثم ضربته بحذاء كان في يدها، وقالت: اخرج، اخرج من هنا، لا أريد أن أراك..

وضع سمير اللبن والبيض، ثم خرج باكيا، لا يعرف ماذا يفعل أو ماذا يقول ؟!

أخذ يمشي لا يعرف مكانا يقصده.. إلى أن وصل إلى مكان ظليل قرب بيت الشيخ الحكيم، وجلس مفكرا باكيا .

أما الأم فقد أعدت الفطور، وأيقظت ولديها، ولم تخبرهما عن

سبب غياب سمير، وبقيت الأم في حيرة وتأسف من فعل ولدها وسوء طبعه.. بينما كان سمير مستغرقاً في التفكير إذا خرج الشيخ الحكيم من داره.

- صباح الخير: ماذا تفعل في هذا الوقت هنا يا ولدي؟

- سمير خائفا: صباح الخير يا سيدي، لا شيء،لا شيء..

فهم الشيخ الحكيم من جوابه ورجفته أن هناك أمرا يخفيه هذا الولد..

قال الشيخ الحكيم: هل ترافقني إلى بركة الماء الحار ؟

سمير: نعم، بكل فرح .

اصطحب الشيخ الحكيم سميرا، حتى وصلا إلى المكان المقصود . فقال الشيخ الحكيم: إنني آتي كل يوم إلى هنا لكي أنظف الماء من الأوساخ، لكي يجده المرضى صافيا رقراقا، وكنت أجد فيه قشور بيض مسلوق، ولا أعرف من كان يرمي هذا الوسخ في الماء..

اشتد خوف سمير، عندما سمع كلامه، ثم قال الشيخ الحكيم: عجبا.. ليس في الماء قشور البيض كما هي العادة، لعل صاحب هذه العادة القبيحة رجع إلى رشده .

فقال سمير بكل شجاعة: نعم يا سيدي، لقد عاد إلى رشده، أنا صاحب القشور.. وقص عليه قصته .

فقال له الشيخ: يا ولدي سمير، سأحكي لك حكاية تنفعك إن شاء الله، فقال سمير: أجل، أجل، فقال الشيخ الحكيم: يروى أن نبي الله عيسى على نبينا وعليه الصلاة والسلام كان معه صاحب له يتنزهان في سفر.. فأصابهما الجوع وقد وصلا إلى قرية.. فقال لصاحبه: انطلق فاطلب لنا طعاما من هذه القرية.. وقام عيسى عليه السلام يصلي.. فجاء الرجل بثلاثة أرغفة . لكن سيدنا عيسى أطال في صلاته فلم يصبر صاحبه على الجوع فأكل رغيفا.. بعد أن فرغ عيسى عليه السلام من الصلاة قال: أين الرغيف الثالث ؟ فقال ما كان إلاّ رغيفان.. فتابعا السير في نزهتهما فلقيا غزالا فنادى عيسى عليه السلام الغزال، فجاء إليه مطيعا فذبحه، ثم أكلا منه، ثم قال عيسى عليه السلام للغزال: قم بإذن الله.. فقام الغزال حيا.. فقال الرجل: سبحان الله ! فقال له عيسى عليه السلام: أقسم بالله الذي أراك هذه المعجزة.. من صاحب الرغيف ؟ فقال: ما كان إلاّ اثنان.. فتابعا السير فوجدا نهرا عظيما، فأخذ عيسى عليه السلام بيد صاحبه ومشى به على الماء حتى جاوزاه.. فقال الرجل: سبحان الله !! فقال عيسى عليه السلام أقسم بالله الذي أراك هذه المعجزة، من صاحب الرغيف؟ قال: ما كان إلاّ اثنان.. فخرجا حتى أتيا أهل قرية عظيمة خربة، وإذا قريب منهما ثلاثة أحجار كبيرة من ذهب.. فقال عيسى عليه السلام: واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة لصاحب الرغيف الثالث ! فقال صاحبه: أنا صاحب الرغيف الثالث.. فقال عيسى عليه السلام: هي لك كلها.. وتركه غاضبا لأنه كان كذابا.. بقي الصاحب الكاذب مع الأحجار الذهبية الثلاثة لا يستطيع حملها لأنها ثقيلة جدا.. فمر به ثلاثة رجال فقتلوه وأخذوا الذهب.. فقال اثنان منهم للثالث: انطلق إلى القرية فأتنا بطعام.. فذهب.. فاتفق صاحباه على قتله وتقسيم الكنز بينهما.. بينما ذهب صاحبهما لشراء الطعام من القرية ، جاءته فكرة لوضع السم في الطعام حتى يقتلهما ويأخذ الذهب وحده.. ففعل ما أملاه عليه الشيطان.. فلما عاد بالطعام المسموم قتله صاحباه وأكلا الطعام لأنهما لا يعرفان أنه مسموم فماتا هما أيضا بجوار الذهب.. فمر عيسى عليه السلام بعد ذلك.. وعندما رآهم صرعى أشار إليهم وإلى الذهب قائلا لمن معه من المؤمنين: هكذا الطمع يفعل بأهله فاحذروه .

فقال الشيخ الحكيم وكان سمير يبكي بكاء الندم: هل عرفت يا ولدي أن الأخلاق السيئة عاقبتها وخيمة . قال سمير: أنا آسف، وأعاهدك أن لا أعود إلى تلك الطباع القبيحة.. أخذ الشيخ الحكيم بيد سمير، وقال: هيا بنا إلى أمك لكي تطلب منها السماح والعفو..■